

أحمد بن يوسف الملياني وضريحه المجال والمقدس بين الحضور المادي والاستحضار المعنوي
من خلال كتب المناقب والأحكام

Ahmed bin Youssef Al-Malyani and his tomb The field and the sacred between
physical presence and moral evangelism Through the texts of virtues and provisions

إسماعيل بركات

جامعة المسيلة (الجزائر)

Ismail.barkat@univ-msil.dz

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2023/02/27 تاريخ القبول: 2023/03/27	تسعى هذه الورقة البحثية للوقوف على فضاء ضريح أحمد بن يوسف الملياني (ت 931هـ/ 1524م)، عبر تشغيله على نصوص منقبية وفقهية، للكشف عن أنماطه وتمظهراته الواقعية مكاناً وزماناً وأشخاصاً، وعبر امتداداته ورموزه وطقوسه، والسؤال عن الكيفيات التي استثمرها داخله الصوفي في تحويل قداسته تحويلاً رمزياً إلى تصورات ومفاهيم وممارسات لإنتاج وقائع وتمثلات، حيث استبان قصور نصوصها في التعبير عن مؤسس مجالها المقدس، وإضافتها عليه أخباراً مشحونة بالكرامات الساذجة دون تقدير أو أمانة، وأن استمرار الكتابة فيه إلى القرن 19م ضمن الأبحاث الأثنوغرافية والتاريخية الاستعمارية في سياق البحث عن جذور المعتقدات الشعبية للمغاربة، قد شكّل مركزية زيارة أضرحة الأولياء والمرابطين في إنسان ما بعد الموحيدين.
الكلمات المفتاحية: ✓ أحمد بن يوسف الملياني ✓ الضريح ✓ المجال ✓ المقدس	Abstract: This research paper seeks to identify the space of the mausoleum of Ahmad bin Yusuf al-Malyani (d. 931 AH / 1524 AD), by using it on syllabary and jurisprudential texts, to reveal its patterns and realistic manifestations in space, time and people, and through its extensions, symbols and rituals, and to ask about the methods that the mystic inside invested in transforming His Holiness refers to perceptions, concepts, and practices, as he reveals the shortcomings of its texts in expressing the founder of its sacred field, and giving it news loaded with naive dignities, and that the continuation of writing in it until the 19th century AD within the colonial ethnographic and historical researches constituted the centrality of visiting the shrines of the saints and stationed in the post-Almohad human.
Article info Received: 27/02/2023 Accepted: 27/03/2023	
Key words: ✓ A hmed binYoussef Al-Malyani ✓ Shrine ✓ The field ✓ holy	

يفتح البحث في تاريخ المقدس الضرائحي⁽¹⁾ بالمغرب الأوسط الوسيط والجزائر الحديثة، عبر تشغيله على نصوص منقبية نظرية ومنظومة وكذا فقهية، باباً واسعاً أمام منازع تاريخية جديدة على مستوى الموضوع والمنهج والمصدر في الكشف عن أنماطه وتمظهراته الواقعية مكاناً وزماناً وأشخاصاً، وعبر امتداداته ورموزه وطقوسه، والسؤال عن الكيفيات التي استثمرها داخله الصوفي في تحويل قداسته تحويلاً رمزياً إلى تصورات ومفاهيم وممارسات لإنتاج وقائع وتمثلات.

إذ القارئ والباحث في مدونة المناقب والأحكام يلاحظ لأول وهلة الدور البارز الذي تلعبه الكرامات في تشكيل ذاكرته التاريخية، وقابلية الوقع والاستيعاب لخاصية ندرتها (صدوق، 1988، ص.29)، لأنها تعد شرطاً وجودياً بلمح الضرورة للاعتراف بالولي، والسعي الدائم للاستفادة من بركته حياً أو ميتاً، ذلك أن البركة لا تخضع للتقادم ولا تسقط بانتفاء الجسد ورحيله، إنما تستثمر عبر الأحفاد، وحتى عبر الأمكنة والأشياء التي فاضت عليها وفيها كراماته.

ولما كان النموذج المنقبي وهو قابل للذاتية والغلو والتسنن بالتقليد. أقل الأنواع التزاماً بحدود الأجناس والقواعد، فإن فهم جدلية التبجيل البشري والمعتقد الديني في حضور المجال عبر المقدس معنوياً ومادياً، من خلال الوقوف على فضاء ضريح أحمد بن يوسف الملياني (ت931هـ/1524م) الراشدي النسب والدار، يكون عبر طول خط مرتكزات الثقافة العالمية ضمن بواعث ومقاصد تأليفها المنقبية منذ القرن 8هـ/14م، ثم استمرار الكتابة فيه إلى القرن 19م، كجنس أدبي ضمن الأبحاث الأنتوغرافية والتاريخية الاستعمارية (Berque, 1978, P. 542; Vatin, 1981, P. 27, 32; Rinn Louis, 1884, P. 39, 41; Depont et Coppolani, 1897; P. 101, 102; René Basset, 1890, P. 4, 12; Dermenghem, 1954, P. 223, 247; Jean Claude Vatin, 1981, P. 27, 32)، في سياق البحث عن جذور المعتقدات الشعبية للمغاربة، والذي شكّل مركزية زيارة أضرحة الأولياء والمرابطين في إنسان ما بعد الموحدين كوجه نموذجي للعصر الاستعماري (مالك بن نبي، 2002، ص.38).

كل ذلك شرط تجاوز مجالها التداولي الخاص للمقدس، لمعانقة المجال التداولي العام والمشارك للمتحيل الجمعي في أنماطه الذهنية والمثالية، واعتماداً على المنهج التحليلي الأنثروبولوجي الرمزي الذي يركز على اعتبار الولي وحدة رمزية أساسية في التحليل، من خلال مطابقة فعل الكرامة للداخل الصوفي وليس للخارج الموضوعي، ذلك أن ترجمة المقدس تعكس ما هو متحقق بالفعل ومتعين في الواقع.

وعلى الرغم من قصور نصوصها في التعبير عن منحى مؤسس مجالها المقدس، وتخبّطها في سرد أفكاره، وربما إضفائها عليه أخباراً مشحونة بالكرامات الساذجة دون تقدير أو أمانة، مما جعلها أكثر تشويشاً على المنقب في تضاعيف مدوناتها، رغم ما تتضمنه من مادة تاريخية مهمة، مما يجعل مطلب المراهنة عليها مع التحقيق والمقارنة منوطاً بإشكاليات سياقاتها المتباينة حول سوسبولوجيا وسيكولوجيا ورمزيات كرامات

ومناقب أحمد بن يوسف الملياني، وما تحيل إليه من نتائج التواصل المطلوب بين حقلي المقدس والفعل الاجتماعي، بتداخل أنماط كتابتها في نسج خطابها حول ذاته كوجود مستمر قدّسته المخيلة الجماعية، بين النظري في حدود النص والعقل، والإبداعي بتوصيف البيوغرافيا وتمثّل تجربتها في إيراد الخوارق، وبالترجمة استناداً إلى الواقع والتاريخ.

فهل يمكن وسم ضروب كتابتها بالتاريخ الساكن؟ أم هي شواهد حقيقية لذهنيات تاريخية في مستويات متعددة تحاول إضاءة زوايا معتمة عن الفضاء المقدس بالمغرب الأوسط الوسيط والجزائر الحديثة، من خلال تأثير الإرث المادي الملياني على ذهنية إنسان المغرب الأوسط والجزائر الحديثة، واستمرار حضوره الرمزي المجالي الذي لا زال ينعش الضريح ومنظوماته بنبض الحياة والاستمرارية في التبرك والتقدّيس إلى يومنا هذا؟

1. قصور النص المنقبي الوسيط في التعبير عن منحى فكر المقدس

يطرح البحث في مساهمة السير المناقبية الوسيطية والمتعلقة بالثبوت البيوغرافي لبيوغرافية أحمد بن يوسف الملياني (ت 931هـ/1524م) معضلة توثيقية تبتد على مستويين، الأول يتناول حياته كسيرة وليست مجرد ترجمة، مع ما غاب معها من شطور حول تكوينه ومشيخته الصوفية التي نهل عنها في رحلاته، والثاني ما يتعلق ببرهان ولايته، والتنقيص على شمائله ومفاخره، وبصفة خاصة التأكيد على كراماته الظاهرة المتجلية في إيراد العجائبي والخوارقي، وسلطة قدسيته بفعل أبعاد مجال ضريحه المزار وزواياه المتعددة، ويمكن تمييزها باعتبارها ترجمة وليست سيرة.

ونعني بذلك ما ورد في مخطوط "بستان العارفين الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار" لمؤلفه الصباغ القلعي أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن علي، وإن كان الهدف منه التأريخ والترجمة لشيخه، فإن محتوى خطابه متأثر بزمانه أكثر منه بزمان المترجم له، ولعل القصد الراهن والملح الذي هدف إليه الصباغ القلعي إلى تحقيقه من تأليفه، هو الذي فوّت عليه فرصة الاستفادة من معاصرته للعديد من الأشخاص الذين صحبوا شيخه من أتباعه والذين عرفوه من غيرهم، فيؤلف سيرة حقيقية تعنى بضبط التواريخ وتقصي الأحداث وتحري الوثائق وإثبات أسماء الأماكن والمواقع.

ويبدو لأول وهلة أن استقرار نصوصه بأنه "النص النموذج" في ترجمة أحمد بن يوسف الملياني الراشدي النسب، ومادته في ذلك الكشف والكرامة والرؤية والتأثير والتوجيه، وذلك لاعتبارين: الأول نظراً لاعتماده على الروايات الشفوية والأسطوغرافية⁽²⁾ فيما يتعلق بمناقبه، فقد كان لمصادر الجيل الراشدي الأول. الشفوية منها والمكتوبة. قصة السبق في تأليف سيرة مؤسس الطريقة الراشدية⁽³⁾، والتي حملت معاني الطريقة الراشدية في ثوبها العرفاني السني قد وصفت الشيخ الملياني "بالولي الصالح"، وأبرزت السمة البارزة لمناقبه

"بالمعتدلة"، غير أنّ الكثير منها قد ضاع، ولم يبق منها إلا ما نقله في "بستانه" كمادة نفيسة (الصباغ القلعي، مخ، ورقة 124 و، 125ظ، 126 و، 127ظ، 128 و، 129ظ).

والثاني لأن الصباغ القلعي استطاع أن يضع إطاراً موضوعياً لسيرة أحمد بن يوسف الملياني في شتى المجالات التعليمية والاجتماعية والدينية والفكرية، في تشكل سردي يقوم على المادة الحكائية، وبالتضخيم الطارئ على سيرته بأخبار الكرامات والخوارق، ثم بالغلو في تقديس شخصيته، وهو الإطار الذي أصبح متحكماً في مسارات كل المصنفات التي اهتمت بها في الفترة اللاحقة للنص النموذج، خاصة ما يتعلق بصياغة التراجم (نجمي، 2000، ص. 23)، ناهيك عن محاكاة كتابته بالاختصار من قبل المهتمين بحياته، وأخذ ما يتعلق مباشرة بحياته وسيرته "كمناقب سيدي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي دفين مليانة الجزائرية" لمؤلف مجهول، وما ذكره السملالي العباس بن إبراهيم (ت 1378هـ/1958م) في "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"، و"رسالة عقد الجمان في تكملة البستان"، التي جمعها الشيخ محمد بن الهاشمي (أبو القاسم سعد الله، 1998، ص. 116).

2. لبوس المقدس في معطى السير المتأخرة (الكرامات الساذجة)

من المؤلفات التي تعكس الذهنية الجزائرية في نشدان فضل الزيارة ونقلها، مخطوط "ربح التجارة ومغرم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة على ضريح الولي الصالح أحمد بن يوسف داخل قرية مليانة"، (مخ، رقم: 928) لمؤلفه الحاج موسى علي بن أحمد الجزائري (ت 1330هـ/1911م)، إحدى الكتابات المنقبية التي تتوفر عليها تراث الجزائر الحديثة خلال النصف الثاني من القرن 19م، والذي أضفى دون تقدير أو أمانة لمناقب الشيخ أحمد بن يوسف الملياني أخباراً مشحونة بالكرامات الساذجة، فكانت أغلب "مقاصده" رصداً لكثير من الكرامات والخوارق، حيث لا مجال للحديث عن خصوصية مفترضة، وإنما الارتهان لتنميط مشترك حول خطاب المناقب على مستوى التكرار والإعادة والشروح والنقل والنسخ، خاصة فيما يتعلق باستفحال سوء فهم معاني ألفاظ الولي والصالح والعارف والمرابط، لابتعاد مؤلفه عن زمن النص المؤسس، وبالتالي اعتراء هذه الألفاظ التحريف والإتقال بميزات طارئة ليست من صلبها.

ولذلك أضحت ألفاظ عصره أكثر تداولاً وشهرة في حديثه عن صوفية القرن 9هـ/15م، مثل لفظ "القطب الغوث" و"المجنوب الروحاني" و"الشيخ البركة" و"الغيث الهاطل" و"الكبريت الأحمر" وغيرها، كما أقحم لفظ "سيدي" الذي صار من المسلمات في تقاليد الحياة الروحية، مما جعل نصوصه حقلاً خصباً لاستنتاجات أبحاث الفرنسيين الأنتوغرافية والمونوغرافية فيما يتعلق بظاهرة الطقوس والممارسات التعبدية، والاعتقادات المتداولة بشأن الأضرحة والمقابر بالجزائر خلال القرن 19م.

3. الأطروحة الفكرية والطقوسية لأحمد بن يوسف الملياني (القيم الصوفية)

يتعلق الأمر هنا بعملية إخراج المترجم له من التاريخ إلى المثال، ومن الواقع إلى الذهني، وتنصيبه في مستوى النموذج الأصلي، أو الطراز المرجعي المثالي الذي يفترض أن تتطابق معه، أو تحاكيه كافة الأنماط

الأخرى، (حلاق، 2007، ص. 57)، وبالتالي الكشف على البنى المتحكمة في صياغة هذا النوع من التراجم، والأنماط المثالية التي تعكس أبعاده الرمزية والطقوسية، لأن قداسة الإنسان تتوقف على مقدرته في العطاء الرمزي، ولأن المقدس محوره الإنسان ومصدره الدين، فالإنسان يستلهمه من الدين ويقوم بتفعيله ليشمل بإشعاعه الفضاء، (خالد، 2000، ص. 71)، ويعود على حامله بمرد الأسرار ومحامل الأنوار وتتوير البواطن واستقامة العلائق.

وقد توافرت نصوص المناقب على المعاني الدالة على تمثل أحمد بن يوسف الملياني للقيم الصوفية، فضلاً عن المعاني المفعمة بتقديسه وتعظيمه، والنعوت القيمة التي تكشف تضلعه في علوم الشريعة والحقيقة، والأسرار اللدنية، وتحليلته المبينة لطابع الموسوعية وتغلب الصبغة والمسحة الصوفية على مستوى التربية والتأهيل والتكيف وفقاً لنظام سلوكي طقوسي، وتوظيفه خبرته وعلمه بأسرار الخلق وطبائعهم في تخصيص ما يلزم كل مرید من السلوك.

تبدو ملامح شخصية أحمد بن يوسف الملياني انطلاقاً من المعطيات التي جاء بها الصباغ القلعي إلى الأخبار التي جاء بها المتأخرون من أتباعه، هو بمثابة الانتقال من التاريخ إلى الأسطورة في رسم زوايا صورته، خاصة ما يتصل بالغلو الذي حدث في تقدير مكانته كعارف من الله والوجود، والتحويلات الاجتماعية التي طرأت على فئة المتصدرين لمشيخة زاوية مليانة والقائمين على خدمة ضريحه.

يتخذ الصباغ من تاريخ أوبة شيخه أحمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف (الصباغ القلعي، ورقة. 125ظ، أ)، تاريخ ميلاده غداة انتصاف القرن 9هـ/15م في دوار "رأس الماء"، الواقع في قسم الهضاب الشمالي من وطن بني راشد، إلى تتلمذه على يد شيخ أحمد زروق (ت 899هـ/1493م) مرحلة حاسمة من سيرته الروحية ونشاطه العلمي، خاصة بمعهد "تامقرة" أين اشتهر بين أهله وعشيرته القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم في سيرة لاحقة أين مثل مركزية الصحبة والافتداء، وطريق التبرك بالسند في لباس الخرق، في الكشف عن منظومة فكره وسلوكه وطريقته في الانتماء، فقد تلقى الذكر بالعهد والمصافحة عن شيخه في الطريق العمرة الوثيق أحمد زروق، ثم سند التبرك من أبي الحسن الشاذلي إلى آخر السند (الصباغ القلعي، ورقة. 130و، ب).

ولما كانت الطريقة الشاذلية هي الأصلية، وكان السير فيها سير القلوب، والرياضة فيها تعلق القلب بالحق ﷻ من غير مجاهدة في البدن، كانت التربية فيها بالهمة، بمعرفة طبائع الأسماء والحروف، ومعرفة طبائع ذاكرها، ومعرفة طبائع العناصر الأربعة وكذا الأزمنة، في تخصيص ما يلزم كل مرید من السلوك (الصباغ القلعي، ورقة. 238و، 262ظ، ت).

وهذا ما أكده تلميذه عبد الحق بن علي المطهري في لاميته (الصباغ القلعي، ورقة. 126و، ث)، وما اشتملت عليه من أحوال الشيخ وكرامته ومناقبه وطريقته مع بدعة أسلوبها وعارف نظامها، حيث يقول:

قد صار سراً وإكسيرا الذي أربَّ بقدره الله لا بالطلع والعلل

وفي فرز أفكاره العرفانية السنية، حيث دعامة المعرفة الذوقية بواسطة الذكر (بونابي، 201، ص. 39)، كان للذكر الفردي والجماعي أهمية بالغة في الطريقة الراشدية على وجه العموم، وكان المراد حسب الحاج موسى علي بن أحمد الجزائري؛ مجالس الذكر التي تشتمل على ذكر الله بأنواع؛ الذكر الوارد عن تسبيح وتكبير وغيرها، وعلى تلاوة كتاب الله ﷻ، وعلى الدعاء بخير الدنيا والآخرة، وفي دخول قراءة الحديث النبوي، ومدارسة العلم الشرعي ومذاكرته، والاجتماع على الصلاة النافلة وغيرها (الحاج موسى، ورقة. 22ظ). وقد ذكر الوزان أن الشيخ أحمد بن يوسف لم يكن يكلف أتباعه بأي نوع من المجاهدات أو الكلف، والتي تزيد على الصلوات الخمس المفروضة، عدا أنه كان يوظف لهم أذكارا بالأسماء الحسنی يذكرون بها عقب كل صلاة، وأوعز ما عاينه من كبير اعتقاد ومحبة أتباعه (الوزان، 1983، ص. 30، 341).

ولما كان له قصب السبق في مضمار المعرفة الصوفية في بعض دقائقها، والذي نشأ عن عمق اهتمامه بمعرفة الله، فقد وصفه معاصره الشيخ أبو محمد عبد الله الهبتي بأنه من كبار العارفين، ففي فقرة بليغة يطالعنا الصباغ القلعي بشيء من سعته ومعرفته بربه بقوله: "فمن ذلك أنه قال ﷺ: إذا سألك أحد بماذا تعرف الله، فقل: الله واحد موجود، له أسماء وصفات، وذات أسمائه لا تشبه الأسماء وصفاته لا تشبه الصفات وذاته لا تشبه الذوات وهو موجود لا يعلم أحد كيف هو، ولا أين هو لا يشبه شيء ولا يشبه شيئاً، كل ما يخطر في عقلك أو وهمك فالله بخلاف ذلك لا يعلم الله إلا الله والعجز عن الإدراك إدراك" (الصباغ القلعي، ورقة. 260و).

وهو ما صرح به ابن عسکر (ت ق 986 هـ / 1578م) في دوحته من أنه سمع شيخه عبد الله الهبتي يقول: "سئل سيدي أحمد بن يوسف عن ذات الله تعالى هل هي حسية أو معنوية؟ فأجاب بأن قال: هي حسية لا تدرك، قال سيدي أبو محمد: وهذا جواب لم يسبق بمثله، وفيه دليل على قوة معرفته بالله سبحانه" (ابن عسکر، 1997، ص. 124، 125).

ويجعل أحمد زروق مناقب تلميذه الملياني محور تجلي مواهبه وتحققها، من حصول البركة إلى اكتسابه موهبة المكاشفة، فقد اعترف أمام تلامذته أن ما يبدوا على تلميذه أحمد بن يوسف من صواب وتوفيق ليس ثمرة سلوكه على يده، ولا من فعل غيره من الخلق، بل هو فعل الحق الذي فتح عليه في علم وفهم خصهما بهما دون بقية الأخذيين عليه (الصباغ القلعي، ورقة. 29ظ، 64و، 65ظ، أ)، ليعجز أحمد زروق وشيخه محمد الزيتوني عن إدراك مبلغ المنح والمواهب اللدنية المبذولة له، والذي كان على علم بمقدارها (الصباغ القلعي، ورقة. 56و، ب).

وتبطل الغرابة في كون التلميذ أعظم من شيخه حين تكرر السير المتأخرة (الحاج موسى، ورقة. 86و. الورثياني، 2008، ص. 132)، دون موارد حكاية تقبيل الشيخ عيني تلميذه وكفيه وقدميه، وهي إشارة إلى علو منزلته في علم الظاهر والباطن.

وقد أحسن أهل قلعة بني راشد وسائر معاشر هوارة وغيرهم، حين طلبوا من تلميذه الصباغ القلعي تقييد مجموع في ذكر شيء من مناقبه، وما وقع له من الكرامات وخوارق العادات، يمكن لهم الاستعانة بها على بلوغ القصد وإدراك الأرب سعيًا منهم إلى التبرك بآثاره (الصباغ القلعي، ورقة. 1و).

وهي إشارة إلى صيغة المبالغة التي كانوا يقدمون بها الصوفية، فحلاه الحاج موسى علي بن أحمد الجزائري بأنه: "الشيخ البركة، الفائض في بحر المعرفة والمستخرج من دُرَره، الولي الكامل والقطب الكبير، الغيث الهاطل الشيخ المزار، سيدي أحمد بن يوسف الراشدي..." (الحاج موسى، ورقة. 2ظ، أ)، وأنه: "إمام رباني ومجنوب روحاني ومن أكابر أهل العرفان" (الحاج موسى، ورقة. 107و، ب).

وكان الغالب عليه الخوف من الله ﷻ، لابتنائه الطريقة الشاذلية القائمة على حفظ الحدود وتعمير القلب بالرب سبحانه مع الشكر والإخلاص، وهي المعروفة بطريق الشكر، ولذا كان دائم التضرع والابتهاال والاستغفار إلى ذي الجلال، وجمع همة القلب عليه، والرجوع إليه سبحانه (الحاج موسى، ورقة. 94ظ، ت)، مما جعل ابن زرفة محمد عبد الله (كان حيًا سنة 1207هـ / 1792م) يصفه بقوله: "فأعطى الحكم والشريف والولاية والعزل حيًا وميتًا، لا ينطق عن الهوى، كل ذلك بواسطة المكاشفة والفراسة" (ابن زرفة، مخ، ورقة. 6و).

وجعل ابن عسكر منه موحدًا عرفانيًا في جانب الحقيقة وشاذلي الطريقة الصوفية بقولها: "ومنهم الشيخ العالم ولي الله تعالى أحمد بن يوس الملياني من أصحاب الشيخ زروق، جليل القدر كبير الشأن، فتح عليه في أسماء الله تعالى وتصريفها" (ابن عسكر، 1997، ص. 124)، فضلًا عن وصفه بأفضل الصفات وأحسن الأخلاق، واليقين الراسخ، والقيام بوظائف الشرع واعلم الناس بالطبائع وطبائع القلوب (الصباغ القلعي، ورقة. 2و، 3ظ).

وكان متواضعًا ورعًا زاهدًا يحبب الخلق في الطاعة ويحرضهم على الذكر، فجمع الله له بين علم الحقيقة والشريعة، وانتهت إليه رئاسة السالكين وتربية المريدين بالبلاد الراشدية والمغرب بأسره (الحفناوي، 1985، ص. 97).

وقد استحسنت قبائل بني راشد نهجه الإصلاحية الذي ربطه بسنة النبي ﷺ، وأخلاق صحابته وسلفه الصالح، وهذا ما عناه تلميذه محمد العنتري العربي في التذكير بوظيفة الإصلاح التي اضطلع بها شيخه الراشدي بقوله في قصيدة مخمسة [الطويل] (الصباغ القلعي، ورقة. 15ظ، أ):

أنا ديك يا متقدنا من فسادنا وعُمدتنا في ديننا ومعادنا

فأنت السبب في مقال رُشدنا يا قطب زماننا وغوث بلادنا

ومذهب ظلها إذا سار سناها

وتنهض مراسلاته إلى أهل مراکش (الصباغ القلعي، ورقة. 218و، ب)، ولأهل مصر (الصباغ القلعي، مخ، ورقة. 234و، ت)، وأهل مدينة بغداد (الصباغ القلعي، ورقة. 234و، ث)، دليلاً على علو كعب صوفيته وأخلاقه، وطابع الموسوعية، وزهده المترفع عن الأمور الدنيوية والمنهمك في التفكير في اليوم الآخر، وتمثيله التصوف الصرف بالمغرب الأوسط أثناء حياته وبعد مماته.

4. المقدس بين الحضور المادي والاستحضار المعنوي⁽⁴⁾

يتجلى من خلال مدونة المناقب مدى أهمية ما يسمى "بالكرامات الاجتماعية"، أي المتصلة بشؤون الحياة المادية من أمور معيشية وأمنية، والوظائف المعنوية للولاية لمتطلبات الحياة الروحية، ففي مناقب أحمد بن يوسف الملياني تتمحور جل الكرامات حول الاستغاثة والتوسل، والدعاء والإشفاء، والمكاشفة، وحضور البركة في الطعام، ناهيك عن استبعادنا لكرامات خرق قوانين الطبيعة، من طي الأرض والخطوة، والمشى فوق الماء، وكلام الجماد والحيوان وغيرها.

1.4. أحمد بن يوسف الملياني ولي بني راشد (التعظيم والتقديس)

سرعان ما سيجد الفكر الصوفي على صعيد وطن بني راشد بناء زاوية رأس الماء، للقيام بواجب الإصلاح الديني والاجتماعي في الوسط القبلي بعد الإقرار بأهمية الشيخ أحمد بن يوسف في الطريق (بونابي، 2011، ص. 397)، أين كان الناس يتقاطرون عليه وينهلون من علومه (الصباغ القلعي، ورقة. 8و، 15ظ، 88و، 134و)، ويهرعون إليه طلباً لبركته للإبراء من سقم جسماني أو الإشفاء من داء نفساني، فضلاً عن الفرار إلى زاويته في وجه الجوع أو الظلم أو يبتغون جاهه لرد مسروق أو قضاء حاجة.

وقد ساق الصباغ القلعي نماذج مما حدّث به تلامذة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، عن طريقة الدعاء وتوظيفه للإشفاء، فمن مشهد دعائه لسفينة من الروم ببجاية (الصباغ القلعي، ورقة. 3ظ، 4و، أ)، مروراً بطلب محمد بن عبد الجبار الفجيجي بموضع الأجراف الدعاء من الشيخ والتكلم معه في عدة علوم (الصباغ القلعي، ورقة. 8و، ب) إلى مشهد عراج التركي يطلب من الشيخ الدعاء لرجل مراكشي كان قد حبسه أثناء قدومه كرشطل (الصباغ القلعي، ورقة. 26و، ت)، إلى استغاثة علي بن زينب ثلاث مرات بالشيخ بمسح يده المباركة عليه، فكان كأن لم يكن به مرض (الصباغ القلعي، ورقة. 55ظ، ث)، إلى ما حدّث به عطية بن خنانس العربي من دعائه لامرأة مريضة بداء العضال (الصباغ القلعي، ورقة. 88و، ج)، إلى ما حدث به محمد الهواري البومنجلي أنّ رجلاً أتى بزوجته للشيخ وبها داء عظيم في جسدها، فوضع يده على الداء فشفيت (الصباغ القلعي، ورقة. 88و، ح).

كما يستشف من خلال سطور سيرة أحمد بن يوسف الملياني التي تتحدث المسغبة وإبوائه للعائل، وسده لرمق الهالك من الجوع (الصباغ القلعي، ورقة. 53ظ، 54و، خ)، من خلال رمزية اللذة التي تحملها مناقبه وهي تذكر أنواع الأطعمة والفواكه العديدة (الصباغ القلعي، ورقة. 53ظ، 54و، 55ظ، 66و، 77ظ، 87ظ، 112و، 115ظ، د)، ولو أن هذه الأخيرة من الكرامات التي يبحث فيها أحمد بن يوسف الملياني عن قدسيته

وهو ليس بشيخ، وهي بذلك تعزيز لذاته التي يحافظ عليها وعلى وجودها واستمراريتها، كما حددت العلاقة بينه وبين مجال جماعته (بجاية).

ومن مظاهر التعظيم والتقدیس لأحمد بن يوسف الملياني في هذه المرحلة الانصياع التام لإشاراته، والامتثال لعباراته والخضوع لأوامره، فقد لعب دورًا متزايدًا في مؤازرة الأخوين عروج وخير الدين في قيامهما بوظيفة الجهاد التي أهملها الأمراء الزيانيون، ولما تمهد أمر خير الدين بالجزائر وأصلح شأنها وسد خللها، جعل هدية تزيد على الأربعة ألف دينار سوى الأثاث وما يناسب الملوك، كما يُهدي العامل لسيده، وبعثها للشيخ سيدي أحمد بن يوسف مع أخيه الرئيس عروج الاسكندري، فقبلها الشيخ منه ودعا له، فعند ذلك كتب له الشيخ وقال له: "إنّ حكمك لا يجري علينا ولا على نسلنا ولا على من تعلق بنا وبنسلهم، فإن وفيتم أحسنتم، وإن خالفتم عوقبتم" (الصباغ القلعي، ورقة. 26و، ذ).

2.4. ضريح أحمد بن يوسف الملياني مقصد التبرك والزيارة (طقوس وممارسات)

تحيلنا بعض معاني البركة في اللغة؛ العلو والارتفاع (ابن منظور، 1999، ج1، ص. 387)، أي أن البركة تحصل للإنسان هبة وتكريماً وتشريعاً من الله لا من اكتساب نفسه، إلى انتقال حالة الإنسان أو غيره من وضع دنيوي إلى وضع قدسي (شغموم، 1991، ص. 232)، وهو ما يفتحنا على إدراك وتمثل مفهوم المقدس مقصد التبرك أو الزيارة، والذي يتعلق ببنية وممارسات مقننة تتسحب على مجال معين، في مقابل بنيات وممارسات تصنف داخل دائرة الدنيوي، ولو أن الأمر يتعلق بمجالين يؤسس أحدهما للآخر باستمرار.

وبما أن المقدس تجلّ في البدء والختام، واشتغال خفي ومضمر على الطقس والرمز (العطري، 2014، ص. 23، 24)، فإن البحث عن هذه الطقوس التي يوليها الأفراد أهمية كبرى في سياق إنتاج وإعادة إنتاج فعلهم الاجتماعي، تكون عبر الضريح باعتباره قبر لولي صالح، والذي استمد قداسته من قداسة صاحبه، وهنا تكمن عبقرية المكان التي تؤسس لقداسة المكان من خلال قداسة صاحبه.

ولأن المجال المقدس له تاريخ بالمعنى الذي يفترض فيه وجود مؤسس، أي نقطة بداية في الزمان تسمى لحظة التأسيس، وليس له تاريخ بالمعنى الذي يصبح فيه المؤسس لحظة تحيينية وتكرارية دائمة للحظة التأسيس، أي يصبح التاريخ المجالي متخذاً صبغة دائرية محكومة بقانون العودة إلى اللحظة التأسيسية الأولى، بهذا المعنى يكون المؤسس قناة لتصريف القدسي في التاريخ والمجال لدرجة تصبح معها هوية المؤسس هي ذاتها هوية المجال، كما يصبح هذا الأخير تجسيداً لفعل المؤسس وإطاراً لحضوره الدائم، فاندماج العناصر المجالية بالعناصر القدسية يشكل في آخر المطاف مركباً رمزياً مشحوناً بالقداسة (الزاهي، 2005، ص. 36). وهي الصورة التي حرصت عليها الروايات المنقبية الوسيطة في تتبع مسار قدسية أحمد بن يوسف الملياني من خلال استمرار تأثير كراماته بعد موته، وامتداد بركته إلى مجال ضريحه في الحمولة الرمزية، باعتباره حامل لرأسمالي رمزي قدسي روعي معنوي تمثل في شخصه، فأضحت هويته هي هوية المجال وإطاراً لحضوره الدائم.

والمقصود بزيارة أضرحة الصوفية؛ تلك التي يروم صاحبها في الأرض للقاء المتصوفة والأولياء وزيارة أضرحتهم من أجل الارتقاء نحو الولاية وتعميق الثقافة الصوفية (الشاهدي، 1990، ص. 66. نشاط، 200، ص. 25)، والتي يجري تدبيرها وفق سلوك طقوسي يمتح من دائرة القدسي، بحيث يصير الطقس دائر في فلك القدسي والديني، ومشيرًا إلى تعالق قوي بينهما (العطري، 2014، ص. 14).

وهو الوصف الذي ترجمه الضريح بالمغرب الأوسط خلال القرن 9/15م، حيث أصبح مكانًا يُشع منه المقدس، وعنده تقضى حوائج الناس، فبرز صاحب الضريح يمارس سلطته في حياة الزوار، ونظرًا لهذا الاعتقاد الشعبي في قدرته، وسيادة فكرة التماس البركة عنده، صار ضريح أحمد بن يوسف الملياني بعد أن كان "مزبلة"، أكثر الأضرحة استقطابًا للناس من داخل المغرب الأوسط ومن المغرب الأقصى يزورونه ويحجون إليه، قال الصباغ القلعي: ومن مناقبه [أي أحمد بن يوسف الملياني]: قلتُ لشيخ الزروق أين أدفن إذا مت؟ فقال لي: أو في زينة يا أحمد، فكان كذلك في الموضع الذي به القبة الآن بمليانة، كان مزبلةً فصار الآن حوضًا مورودًا وعيدًا مشهودًا، ما دخل القبة المباركة عليلًا إلا شفي، ولا مريض إلا برئ، ولا خائف إلا آمن، ولا ملهوف إلا أغيث، ولا مكروب إلا فرج الله كربته ببركة المدفون فيها [الطويل] (الصباغ القلعي، ورقة. 56، 58):

عليكم بها يا طالبها فإنها شفاءٌ غليلٌ ودواءٌ عليل

ولله در بعض أدباء الوقت حيث يقول [الطويل] (الحاج موسى، ورقة 120ظ، أ):

لئن عَزَمَ من خير البرية موقفُ فهذا ضريح القطب عزّ موقفُ
 وإن شَطَطَ الديار عنا فقيرةٌ حدائق أنسٍ مالنا عنها مصرفُ
 إليه وإلا لا تُشَدُّ ركائبُ ومنه وإلا لا ينالنَ مُسْرِقُ
 أيا معشر الأحباب هذا مناكمُ يخطوا رحال السؤل لا تتوقفُ
 ومُنوا على أبصاركم بتأمل فقد طال ما حنت وطال التثوقُ
 وحق إلهي لا رجعتم بجيبة أبشركم أني كفيلاً وأحلفُ
 أليس معاني الجود قبته التي لها حمل كالبدريل هي أشرفُ
 بها أشرفت مليانة وتباشرت وحق لها بين البلاد التشرفُ
 فمليانة عذراء والجود طبعها تسود بما أسدى إليها ابن يوسفُ
 أيا أحمد نحن الزيار وأتم نزيل قراكم بالكرامة يُصرفُ
 يارب إنا نستجير بجاهه فرؤي قلوباً من مجاره تغرقُ

وَصَلَ عَلَى بَدْرِ التَّمَامِ مُحَمَّدٍ صَلَاةَ كَرَمِ الْمَسْكَ بِلِ هِيَ أَطْيَبُ

وفي السياق ذاته وعلى درجة من التعظيم والتقدّيس يفصح الحاج موسى علي بن أحمد الجزائري عن بركة تربة الشيخ أحمد بن يوسف حين كان بمليانة لأجل زيارته، بعد أن أشرف على الهلاك، فأتى بشيء من تراب قبره جعله في ماء فشربه، فذهب ما به من حينه (الحاج موسى، ورقة 45 ظ، ب)، وهو ما دفع به أثناء تأليفه كتابه، وعند حديثه عن شروط الزيارة وأدبها وكيفيةها وثمرتها، حيث يفصح ثالث الشروط والأدبات عما كان يفعله أهل الجزائر من اجتماعهم في روضة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي حين شد رحالهم إلى زيارة القطب أحمد بن يوسف الملياني (الحاج موسى، ورقة 48 ظ، ت).

ويمكن القول بأن تركيزه على باعث البركة، إنما هو التأكيد على أدب فضل الزيارات وفوائدها لا سيما المتصل منها بزيارة القبور والتضرع عندها، مما ينفع القلب بها، ويتضاعف نوره ببركات زيارتها، وأن زيارة خواص عباد الله المقربين من الأولياء والعلماء الصالحين مما يذكر في عُلى أخلاقهم ونفيس أحوالهم، ما يرجى ببركته انبعاث الجوارح إلى التخلق ببعض أخلاقهم والتأسي ببعض أحوالهم، مع تنوير البواطن واستقامة العلائق (الحاج موسى، ورقة 59، ت).

ليؤكد بأن ضريحه من أعظم المزارات، وصار من لدن دُفِنَ فيه إلى هَلَمَّ جَرًا حوضًا مورودًا وعيدًا مشهودًا، يأتيه الزيار من كل عميق، فنتقيض بركته على زياره وجيرانه، وقد أطبق الناس من أقاصي البلدان راجلين وراكبين، وتطارحوا عند قبره، وعولوا على قضاء حوائجهم بزيارته، ففضّيت في أسرع وقت ببركاته (الحاج موسى، ورقة 56، 58، ج).

ولما كان اللمس كطقس مؤسس ومبرر للزيارة يرمي إلى جني ثمار بركة الولي واستدخالها إلى الذات لضمان حلول ممكنة، حيث تتواشح الزيارة مع الهبة في دينامية المقدس، فلا زيارة دون هبة، ذلك أنها تتخذ قربانياً يرمي إلى تحيين المقدس، وتأكيد الولاء والخضوع، نفهم ما يقرره الحاج موسى علي بن أحمد الجزائري من طقوس الزيارة المتعلقة بضريح أحمد بن يوسف الملياني حيث يقول: "ومدفن بغلته هنا بمحل قرب ضريحه بمليانة، وبحدائه كوة صغيرة يقصدها المحموم فيدخل يده فيها بعد أن تجعل فيها شيئاً من السعير يتركه هناك بها، فيعافى بإذن الله كذا جرب فصح" (الحاج موسى، ورقة 146، ح).

يعكس النص طقساً اجتماعياً تحول بفعل التكرار إلى عادة اجتماعية راسخة، تنبئ بالمكانة التي يحتلها أحمد بن يوسف الملياني في مخيال مجتمع الجزائر الحديثة خلال القرن 19م، فقد أثبت كل من Bodin وBasset René جملة من النصوص المستقاة من مخطوط "ريح التجارة ومغرم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة على ضريح الولي الصالح أحمد بن يوسف داخل قرية مليانة" في أصلها العربي، وأولى التعاليم الصوفية للشيخ أحمد بن يوسف بعض العناية، وقضايا وتقاييد تهمه (Bodin Mercel, 1925, P. 130,) (145. René Basset, 1890, P. 44).

وأشار كل من Rinn وGauvet إلى أن ضريح أحمد بن يوسف الملياني الذي يعرف بالمقام أو المزار موضع الزيارة والتبرك (Gauvet, 1986, P. 288, 289. Rinn Louis, 1884, P. 37)، وضبط Coppelani عدد أيام الزيارة في كل سنة (Depont et Coppelani, 1897, P. 101, 102)، ونقل Basset أدعية أحمد بن يوسف الملياني (ت 931هـ/1524م)، التي كانت متداولة بين أوساط العامة (Henri Basset, 1897, P. 89)، ووصف Dermenghem ضريحه، وأعداد الزوار التي كانت تحج إليه من قبائل المغريين الأوسط والأقصى بسبب إيجابيات ثقافته (Dermenghem, 1954, P. 10 - 25)، إلى درجة حضر زيارة ضريحه بمليانة خلال سنوات 1891 . 1899م، بسبب خطورة الوضع على الإدارة الاستعمارية (شارل روبير، 2007، ص. 479، 480).

والملاحظ أن ثمة ما يبرر التحقيب الذي اقترحته اهتمامات المدرسة الأنثروبولوجية الاستعمارية، فقد ارتكزت دراساتهم على مظاهر الطقوس الشعبية وامتداداتها الدينية والزمنية، بتفكيك محتوياتها وتجاهل مرتكزاتها الذهنية ومرجعيتها الفكرية (Edmond Doutte, 1908, P. 617)، دون التوصل إلى الفصل بين الموروث المحلي والإسهامات الشرقية (لطفي، 1993، ص. 12)، ودراسة ظاهرة الصلحاء والمرابطين ومدى تأثيرهم في المجتمع الجزائري، انطلاقاً من انتشار الزوايا والمتصوفة التي كان لها سلطة القرار داخل منظومة الحكم في الجزائر، ذلك أنهم لاحظوا أنّ المرابطين كانوا وراء جميع الثورات التي قامت ضدهم (إدوارد، 2003، ص. 24)، مما جعل إدراكهم للظاهرة في بعدها التاريخي غير موفق، بسبب تركيزهم على الملاحظات الاثنوغرافية الصرفة التي عاينوها من معاشتهم لظاهرة المرابطين، وبالتالي سحبوها على ظاهرة الحركة الصوفية في القرنين 8 و9 الهجريين/14 . 15 الميلاديين على أكثر من مستوى (بونابي، 2009، ص. 4).

فقد أهمل الجانب العرفاني السني في تصوف أحمد الراشدي عند Rinn (Rinn Louis, 1884, P. 272, 273)، وركز على تأثير الراشدية في المرحلة التي أعقبت القرن 16م، من خلال تركيزه على الطائفة اليوسفية التي أفرطت في حبها لشيخها أحمد الراشدي وجعلت منه نبياً، مبرزاً في ذات الوقت أتباعها من الغوغاء وأجلاف العرب الهلالية في البادية، وأهل الشهوات في الحواضر (بونابي، 2011، ص. 392).

ورغم إعادة قراءة لسيرة أحمد بن يوسف المبكرة خلال القرن 16م، على ضوء معطيات التاريخ الاجتماعي والثقافي والديني للمغرب الأوسط على هذا العهد، منتقداً فيه الأسطوغرافية السابقة، آخذاً عليها عدم دراستها لحركة الشيخ في إطارها التاريخي الشامل (نجمي، 2000، ص. 21)، إلا أنه استعمل مصطلحات فضفاضة واسعة في الدلالة على منحى الشيخ وطريقته الراشدية، فوصفه بالعارف الغنوصي، ولم يخف ملاحظته بشأن الطريقة والمستوى الذي عرض بها الصباغ القلعي أفكار شيخه، فوصفها بأنها كانت فقيرة من الناحية البليوغرافية، وأن البون واسع بين أفكار أحمد الراشدي وأفكار تلميذه الصباغ (بونابي، 2011، ص. 393).

5. تطور مفهوم المقدس عند أحمد بن يوسف الملياني من الولاية إلى الخلافة

تمكّن أحمد بن يوسف الملياني من ترسيخ الاعتقاد في كراماته باعتماده على الأمور الغيبية التي أكدتها الشريعة الإسلامية، كالإيمان باليوم الآخر وبالقدر وبالملائكة ونحو ذلك، وهذا الاعتقاد كان يزداد نشاطه بشكل مذهل خلال فترة الأزمات، فمتى عمت الأزمة في المجتمع، إلا وأصبحت الحاجة ملحة إلى بركة الأولياء وكراماتهم.

وبغض النظر عن ضعف مصداقية هذه الخصائص من وجهة نظر الشريعة الإسلامية، فإن الغاية الأساسية التي سعى إليها الملياني لتبليغها إلى الناس، أنه يشكل القيادة الروحية المؤهلة للإصلاح وتجاوز الأزمة في بلاد المغرب الأوسط، بحجة أنه الوارث للخلافة النبوية إرثاً كاملة، والمخصص بالقبطانية العظمى في زمانه.

وقد ساهم الصباغ القلعي في صيانة هذا الاعتقاد كما هو حال حديثه عن رأس مال زاوية دوار رأس الماء، التي كثيراً ما كان شيخه الملياني يحبب إلى الناس زيارتها إن هم أرادوا الأمان، ذلك أنها كسفينة نوح من دخلها فهو آمن (الصباغ القلعي، ورقة. 238و، أ)، ومن دخل قبته فهو ناج من النار يوم القيامة (الصباغ القلعي، ورقة. 56و، 58و، ب)، وأن البركة في ذريته إلى يوم القيامة وخدمتها خدمة تحقيق (الصباغ القلعي، ورقة. 15ظ، ت).

ومما ينخرط في هذا السلك أن شيخه قال: "نظرتُ إلى الحق بالحق، وقمت مع الحق بالحق، والشالي مباح العز والكبرياء، طرثُ بجناح فلم أبلغ منتهى عزه وكبريائه، فنظرتُ إلى الحق بعين جوده فقوى لي بقوته وعظمني بعظمته، وأفردي بفرد دابته، وأعزني بعزته، وحيرني بجبروته، وتوجني بتاج كرامته على رأسي، وكساني برداءِ عظمته، وقمصني بقميص عزه، وقال لي: يا أحمد أخرج بصفاتي إلى أرضي إذ هويتي بهويتك، يا عبدي يا أحمد فمن رآك رأني، ومن أعزك أعزني، ومن عظّمك عظّمني، ومن أحبّك أحبّتي، ومن أعطاك أعطاني، ومن عاداك عداني، ومن أبغضك أبغضني، ومن عصاك عصاني، ومن أحسن إليك أحسن إليّ، ومن أساء إليك أساء إليّ... " (الصباغ القلعي، ورقة. 74و، 75ظ، ث).

وهي محاولة في التأريخ له باعتباره ولياً وشيخاً في نفس الوقت، فهو ولي لاختصاصه بالمعرفة اللدنية وقيامه على أسرارها الكونية في زمانه، ونزوله من العالم الروحي منزلة السلطان، واحتلاله رأس التراتبية الصوفية بكونه قطباً غوثاً، ففي معرض حديث شيخه عن شروط الولاية يقول الصباغ القلعي: "الرسل في المثال شمس، والنبيون وعامة الأولياء كواكب، فبالشمس يستضاء وبالقمر يستنار وبالنجوم يهتدى، فالرسل حجة الله على عباده، والنبيون أمناء الله في أرضه، والأولياء رحمة الله على خلقه، فلا تطمع في رتبة الولاية وقد صار قلبك بالجزع من المصائب مشحوناً، وقلبك بمحاكاة الخلق مسكوناً، وحب الدنيا في سرك مخزوناً، وعقلك في قبضة هواك مسجوناً، فلا يصل إلى رتبة الولاية من كان علمه بالجهل مقرونًا ولا ينزل إلى درجة القرب من كان يجمع المال مفتوناً... " (الصباغ القلعي، ورقة. 210و، ج).

فهو يصنف في هذا النص العارفين في سلسلة الوسائط بين الله والإنسان، فيجعلهم متساوين مع الأنبياء، وفي المرتبة الثانية بعد الرسل، والتي يتساوى فيها عموم الأولياء، لأنه "خليفة" في أرض الله ونائب عن رسول الله ﷺ (الصباغ القلعي، ورقة. 64، و245، ظ، ح)، بمعنى أنه صاحب الخلافة الكبرى في وقته والمؤمن على المعرفة في زمانه، كما خصه الله في المشيخة بالاطلاع على الاسم الجليل، وهو الاسم المتمكن والجامع، والذي يحصل به المضمار الكامل في الرئاسة الروحية، وتمنح به القدرة على رفع الحجب بين العبد وربّه، وعلى أساس هذا الامتياز صنف أحمد بن يوسف المشيخة الصوفية على عهده إلى أربعة أقسام؛ صاحب الوظيفة، وصاحب التقصيص، وصاحب الخرقه، وصاحب الاسم الجليل (الصباغ القلعي، ورقة. 132، و133، ظ، خ)، والمقصود بهذا الاختصاص أحمد بن يوسف والذي اشتهر بالتلقين بالأسماء (الصباغ القلعي، ورقة. 224، و، د).

ثم إن الدور السياسي الذي لعبه أحمد بن يوسف الملياني في تاريخ المغرب الأوسط خلال الربع الأول من القرن 10هـ/16م، هو الجانب القمين بتقديم تأويل وتفسير لازدواجية المقدس الحاصل في سيرته، ففي إحدى النصوص التي أوردها الصباغ القلعي حول مناقبه قوله: "فقال امرأة: هذا الرجل بعينه" (الصباغ القلعي، ورقة. 87، ظ، ذ)، تم ترجمة كلمة "الدجال" بالكلمة الفرنسية التي تعني: رجل الضلال المظهر لخلاف ما يبطن، وهي الصفة التي تعبر عن خلع أحمد بن يوسف لبيعة الأمراء الزيانيين، ودليل على إنكار الفقهاء والفقراء المحافظين على هذه البيعة، وبالتالي ضاعت عليه سلطنة (الخليفة) الوقت على حد تعبير Jacques Berque (Jacques Berque, 1976, P. 98, 103).

خاتمة

يمكن القول ختاماً بأن نسق المقدس الضرائحي يشكل سجلاً خصباً للفعل والتفاعل الاجتماعي، ويفسر موضوعياً بحيوية المجال الذي يشتغل فيه، ويتجذر محلياً بتاريخ من الكرامة والبركة والولاية، ما يجعل من المقدس طاقة استثنائية تنتزل وتتكشف واقعياً ومجالياً في ممارسات وطقوس ومعتقدات.

وفي هذا السياق جاءت قدسية أحمد بن يوسف الملياني من خلال مشهد ضريحه المستدام الذي أضى قبلة المزار ومكان التلاقي والتزاور، على الرغم ما يشوب من آداب زيارته من دعوة مريديه وأتباعه، وما يتوجب من آدابه بكثير من الاستطرادات لتثبيت مفهوم الصلاح قيمياً ووجودياً، وأبعاده زيارته كعامل توازن سيكولوجي واجتماعي وثقافي أمام تحديات العصر ودلالات الوظائف والطقوس التي تشمل كل الشعائر والاحتفالات الدينية، ومختلف العادات والتقاليد المتعارف عنها، والذي شكّل أحد مظاهر العمران الصوفي المتصل بطقوس البركة والتضرع التي كان المجتمع يتعاطاها استمالاً وتقرباً وتزلفاً للتعبد والتدين والدعاء عندها، والتوسل بأصحابها إلى الله ﷻ في دفع المعاطب وكشف المصائب وتحقيق الرغائب وقضاء الحاجات، وكرس بذلك واقعاً تاريخياً في الممارسات الاجتماعية أدى إلى انتعاش جهاز التصوف الطرقي بالمغرب الأوسط الوسيط، ثم بالجزائر الحديثة واتساع تأثيره وعمق نفاذه في نسيج المجتمع الجزائري البدوي والحضري على السواء.

(1) **المقدس الضرائحي**: بناء محتضن ومؤسس لبركة الولي الصالح، وشاهد معماري على امتدادات المقدس في الأرض، يترجم حركة ونقله مادية ومعنوية من مكان دنيوي الدار إلى مقدس طقوسي، بمصاحبة سلوك مادي ومعنوي يظهر في إقبال الناس على هذه الأماكن وما ينجم عنها من ممارسات وتمثلات تتوزع على تقديس الضريح والاحتفال بمواسمه (Roger Caillois, 1951, P. 18)، ميلود طواهري، 2016، ص. 156. عبد الرحيم العطري، 2014، ص. 23، 29، 40. نور الدين الزاهي، 2005، ص. 32).

(2) **الأسطوغرافيا Historiographie**: مجموع النتائج التي توصل إليها الدارسون للكتابات التقليدية، مثل الحوليات والمذكرات والأخبار الجزئية والطبقات والسير، وهي حسب موضوع الدراسة؛ مجموع الروايات الشفوية والمكتوبة، والكتابات التاريخية الكلاسيكية والمونوغرافية والدراسات الإثنولوجية والأنثروبولوجية التي أرخت لموضوع الراشدي والراشدية شيخًا ومذهبًا وأتباعًا، على ضوء المعطيات السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية لتاريخ المغرب الأوسط خلال القرن 10هـ/16م. (عبد الله العروي، 2005، ص. 97).

(3) **الطريقة الراشدية**: تنتمي في منظومتها الفكرية والسلوكية إلى الطريقتين الزروقية والشاذلية، حيث العلاقة التي نظمت بين أحمد بن يوسف الملياني وشيخه أحمد بن زروق بمعهد «تامقرا»، والتي كان قوامها؛ التآرجح بين الجود والامتنان، والتكر والتعلق، والصحة والافتداء، وحضور المجلس العلمي بالجامع العبدلي، وتعزيز التواصل مع شيوخ الشاذلية بتلمسان، والإصلاح الاجتماعي الديني لمجتمع القبيلة، وتلقين التصوف العرفاني، وأخيرًا التأسيس لرواياتها والتصدر لمشيختها بنطاق غرب المغرب الأوسط خلال الربع الأول من القرن 10هـ/16م، من خلال مذهب صوفي رسم أبعاد علاقة أتباعها بالخالق وبالوجود الذي يعيشونه دنيا أو يعتقدونه آخرة. (الصباغ القلعي، (مخ)، ورقة. 210، 238، 243، 305. الحاج موسى علي بن احمد الجزائري، (مخ)، ورقة. 14، 265. عبد الله نجمي، (2000)، ص. 69، 81. الطاهر بونابي، (2009)، ص. 396، 398).

(4) **الاستحضار المعنوي**: استمرارية مجال الضريح في العطاء الرمزي الذي محوره الولي، الذي أضحت بركته وقديسته إرثًا خاصًا لذلك المجال الضيق والواسع، والمؤسس للمخيلة الفردية والجماعية، جذر به مؤسسه سلطته أثناء حياته في تحقيق الرغائب ودفع المعاطب، وبعد وفاته من خلال التبرك عند قبره. (نور الدين الزاهي، (2005)، ص. 36).

قائمة المراجع:

- . إدوارد دو نوفو، (2003)، **الإخوان: دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر**، ترجمة: كمال فيلاي، الجزائر، دار الهدى. عين مليلة.
- . الحاج موسى علي بن أحمد الجزائري (ت 1330هـ / 1911م)، **ريح التجارة ومغرم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيار على ضريح الولي الصالح أحمد بن يوسف داخل قرية مليانة**، مخ، المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة. الجزائر، رقم: 928.
- . الحفناوي أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الديسي (ت 1361هـ / 1941م)، (1985)، **تعريف الخلف برجال السلف**، تونس، المكتبة العتيقة.
- . الحسن الشاهدي، (1990)، **أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني**، الرباط، مطبعة عكاظ.
- . الحسن الوزان بن محمد الفاسي، (1983)، **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- . خالد محمد، (2000)، **المقدس والعنف في التجربة الصوفية**، مجلة إنسانيات، مج1، ع11، الجزائر، ص67، 75.
- . ابن زرفة محمد عبد الله (كان حيًا سنة 1207هـ / 1792م)، **الرحلة القمرية في السيرة المحمدية**، مخ، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2597.
- . السملالي العباس بن إبراهيم (ت 1378هـ / 1958م)، (1993)، **الإعلام بمن حل مراكز وأغامت من الأعلام**، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، ط3، الرباط، المطبعة الملكية.
- . شارل روبر آجيرون، (2007)، **الجزائريون المسلمون وفرنسا (1870 - 1919م)**، الجزائر، دار رائد للكتاب.
- . الصباغ القلعي أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن علي (ت 931هـ / 1524م)، **بستان العارفين الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار**، مخ، الخزانة العامة بالرباط، رقم: 243 / ك.

أحمد بن يوسف الملياني وضريحه المجال والمقدس بين الحضور المادي والاستحضار المعنوي

- . الطاهر بونابي، (2008 . 2009)، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين / 14 . 15 ميلاديين، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر .
- . الطاهر بونابي، (2011)، طريقة أحمد بن يوسف الملياني الراشدي بين ثنائية التصوف العرفاني السني والطريقة الصوفية الإصلاحية 10 . 9 هـ / 15 . 16 م، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع6، ص391 . 402 .
- . عبد الرحيم العطري، (2014)، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، ط1، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس .
- . عبد الله العروي، (2005)، مفهوم التاريخ، ط4، المغرب: المركز الثقافي العربي .
- . عبد الله نجمي، (2000)، التصوف والبدعة بالمغرب طائفة العكاكزة ق16 . 17 م، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة .
- . ابن عسكر أبو الربيع سليمان محمد بن عبد الله الحوات الشفشاوني (ت 1231 هـ / 1816 م)، (1977)، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، الرباط، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر .
- . أبو القاسم سعد الله، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي .
- . لطفي عيسى، (1993)، أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ، تونس، دار سيراس للطباعة والنشر والتوزيع .
- . مالك بن نبي، (2002)، مشكلات الحضارة وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط2، بيروت، دار الفكر المعاصر .
- . مصطفى نشاط، (2001)، الديمغرافية التاريخية في الرحلة الزيارية بالمغرب الوسيط، مجلة كنانيش، ع3، ص23 . 344 .
- . ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي (ت 711 هـ / 1311 م)، (1999)، لسان العرب المحيط، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي .
- . الميلودي شغوم، (1991)، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، مكناس، منشورات المجلس البلدي .
- . مؤلف مجهول، مناقب سيدي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي دفين مليانة الجزائرية، مخ، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، رقم: 403 .
- . نور الدين صدوق، (1988)، النص الأدبي ومظاهر تجليات الصلة بالقديم، ط1، الدار البيضاء، دار اليسير للنشر والتوزيع .
- . نور الدين الزاهي، (2005)، المقدس الإسلامي، ط1، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر .
- . وائل حلاق، (2007)، السلطة المذهبية التقليد والتجديد في الفقه الإسلامي، ترجمة: عباس عباس، مراجعة: فهمي بن عبد الرحمن الحمودي، ليبيا، دار المدار الإسلامي .
- . الورثياني الحسين بن محمد (ت 1193 هـ / 1779 م)، (2008)، الرحلة الورثيانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية .
- . باللغة الأجنبية:

- . Bodin Mercel, (1925), *Notes et questions sur Sidi Ahmed Ben Youssef*, Alger, *Revue Africaine*, No: 323 - 324, 2^{ème} et 3^{ème} tr.
- Depont et Coppolani, (1897), *Les Confréries religieuses Musulmanes*, Alger.
- Dermenghem, (1954), *Sidi Ahmed Ben Youssef, in Le culte des saints dans l'Islam Maghrébin*, Paris.
- Edmond Doutte, (1908), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Paris.
- Jacques Berque, *L'intérieur du Maghreb XVe - XIXe siècles*, Bibliothèque de histoires, Paris, 1978.
- Gauvet, (1986), *Les marabouts petits monuments et voitifs du Nord de l'Afrique*, an revue *Africaines*, No: 64, Alger.
- René Basset, (1890), *Les dictons satiriques attribués à Sidi Ahmed Ben Youssef*, Paris, Extrait de *Journal asiatique*.
- Rinn Louis, (1884), *Marabouts et khouans*, Alger, *Etude de L'Islam en Algérie*.
- Roger Caillois, (1951), *L'homme et le sacré*, Gallimrd, paris.